اسماعيل باشا صبري

شيخ شعراء العصر

١٨٥٤ – ١٩٢٣م

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

تذكر أيها القارىء أنى وقفت فى كلمتى [١] السابقة عن شيخ شعراء العصر، اسماعيل باشا صبرى عند حد تلمذته، وكان فى السادسة عشرة من عمره، ما فتىء يواصل طلب العلم فى فصول إحدى المدارس الثانوية بالقاهرة، ويمارس فى أوقات فراغه قرض الشعر، وينهج فيه منهج متأدبى الجيل الماضى، من مدح الخديوى ورفع التهانىء إلى أعتابه بمناسبة حلول الأعياد، إلى غير ذلك من مختلف المناسبات.

وتذكر فوق هذا أن مجلة «روضة المدارس» كانت تنشر له فى أيام تلمذته تلك، قصائد لاغبار عليها، تنم عن شاعرية عبقرية، غير أنها ما برحت لجة كامنة طى براعمها، لم يأن أوان ربيعها، لتتفتق عنها الأكمام، ويتضوع شذاها معطراً أرجاء النفوس.

وإخالك لم تنس بعد أنى قلت: إن صبرى لم يكن من أبناء العائلات العريضة الجاه، اللاتى يفاخر بنوها بمجد آبائهم وشرف أجدادهم، وقد دللت على ذلك بأبيات جاءت فى مرثية أمير الشعراء «شوقى» لشيخ الشعراء، منها هذا البيت:

قل للمشير إلى أبيه وجده   أرأيت للقمرين من أسلاف؟

وبعد تذكرة القارىء بهذا، أعود لمتابعة الحديث فأقول:

أتم «صبرى» دراسته الثانوية بمصر سنة ١٨٧٣، وهو فى الثامنة عشرة من عمره، ولما كان يعد من نبغاء التلاميذ اختارته الحكومة فى ١٧ مايو من السنة المذكورة ليكون ضمن أعضاء بعثتها الذين تعلمهم على نفقتها فى الخارج، فسافر إلى فرنسا وتلقى علومه العالية فى معاهدها، وعاد منها إلى مصر بعد أن أحرز شهادتى البكالوريا والليسانس فى الشرائع والحقوق وهو فتى لم يتجاوز الثالثة والعشرين، وما لبث أن اندمج فى سلك رجال العدالة والقضاء، وذلك فى إبريل سنة ١٨٧٨.

---

(١) راجع عدد مايو سنة ١٩٣٣ من هذه المجلة

ولا شك فى أن دراسة « صبرى » لفلسفة القانون ، واشتغاله بحل مشكلات القضايا ، وتضلعه فى الأدب الفرنسى ، قد وسع من أفق خياله ، وغذى عبقريته بآراء حديثة قيمة فى نقد الأدب العربى ، وما يجب أن يكون عليه الشعر العصرى .

« والمترجم له من النوادر القضائية ما لا يقل فى الطرافة والقيمة عن نوادره الأدبية » ، ومنها هذه النادرة التى رواها الدكتور هيكل ، وهى تدل — كما سترى — على تعمق « صبرى » فى دراسة سرائر نفسيات القتلة والمجرمين وهيآت ملامح وجوههم ، قال الدكتور :

« اعترف أمامه متهم بجريمة القتل ، فلما خلا مع زملائه للمداولة ، ورأى أن العقوبة هى الإعدام ، ذكر لهم أنه يشك فى اعتراف هذا الرجل ، لأنه لا يرى فى سيماه معنى شجاعة يمتاز بها على غيره من أمثاله . وجىء بالرجل إلى غرفة المداولة وقال له : إن اعترافك هذا يجعلنا نحكم عليك بالإعدام ! فكان جواب الرجل — لكن العمدة لم يقل له هذا ، بل قال لى — حين دفع إلى الجنيهين — : إنه سيعفى عنى لأنى كنت فى السجن حين ارتكاب الجريمة ! ! وتبين فعلا أن الرجل كان فى السجن فلم تكن له فى الجريمة يد ، وقضى ببراءته » .

فتأمل كيف أن هذه الملاحظة التى أبداها هذا القاضى البعيد النظر ، قد أنقصت عنق هذا الفلاح الساذج عن حبل المشنقة ، وضمنت له الحياة بعد أن أصبح على حافة قبره !

وقد أخذ قاضينا الشاعر يرتقى سلم المناصب القضائية ، إلى أن تبوأ فى سنة ١٨٩٥ منصباً رفيعاً لم يتبوأه أحد قبله من القضاة المصريين ، أعنى منصب النائب العمومى ، أو « قاضى القضاة المدنيين » ، إن شئت .

ومن أروع التهانى التى وصلت « صبرى » حين إسناد هذا المنصب إليه ، قصيدة رفع بها إليه صديقه القاضى الأديب المرحوم « حفنى بك ناصف » ، أجتزىء منها هذه الأبيات ، والقصيدة فى جملتها آية من آيات الشعر البليغ الخالد الحى :

لم ينلها سواك من أهل مصر ... والمعالى بالخاطب الكفء تدرى !
طمحت أنفس إليها فصانت ... حسنها عنهم صيانة بكر !
راودوها عن نفسها فاستخفت ... بنهاهم وقابلتهم بهجر
وابتغت كفأها فكنت رضاها ... فهى شمس جرت إلى مستقر
أمض فينا القانون لا فرق فيه ... بين زيد من الرعايا وعمرو !

ولشيخ شعرائنا أبيات ثلاثة من هذا البحر والروى ، يثنى فيها على حفنى بك ، لإهدائه إياه رسمه التوتوغرافى ، ومما زاد لأبيات طلاوة تضمين « صبرى » للمصراع الأول من قول حفنى المتقدم ، قال صبرى :

حظيت راحتى برسمك حفنى مثلما فاض بالمسرة صدرى
صورة ما شفت غليلاً ولكن حيرت فى صفات ذاتك فكرى
أذكرتنى محاسناً لك غراً «لم ينلها سواك من أهل مصر»!!

وتعين « صبرى » فى سنة ١٨٩٦ محافظاً لثغر الاسكندرية ، ثم تقلد وكالة نظارة الحقانية فى سنة ١٨٩٩ ؛ وعند ماحل يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٧ ، كان الشاعر قد بلغ سن المعاش ، فتقاعد ولزم داره ، وانقطع لمذاكرة الأدب ومجالسة رجاله ومراسلتهم .

ويظهر أن المترجم له كان يتمنى أن يساعده الحظ لكى يصبح فى عداد النظار « الوزراء » بعد أن صار فى عداد الوكلاء ، بدليل أنه عند ماشكلت وزارة « بطرس باشا غالى » فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨ – وقد دخلها بعض أصدقائه – نشر بجريدة الأهرام – على سبيل المداعبة التى لاتخلو من مغزى – هذين البيتين اللذين يطيران ظرفاً وخفة روح بإمضاء بتاؤر [1] قال :

أين صبرى من يذكر اليوم صبرى بعد أيام عزله وشهوره ؟
اسألوا الشعر فهو أعلم هلا أكلته الأسماك وسط بحوره؟

وربما كان السبب الذى باعد بين صبرى وبين تمتعه بالجلوس على كرسى نظارة ما ، هو إباء نفسه واحترامه لوطنيته ؛ وقد حملته عزة نفسه على ألا يتعرف إلى الحاكم بأمره يومذاك فى مصر ، وهو المعتمد البريطانى اللورد كرومر ، ومع أنه كان قاضياً لقضاة مصر ، ثم محافظاً للاسكندرية ، ثم وكيلاً لوزارة الحقانية ، فإنه لم يسمح لقدمه أن تعبر عتبة « قصر الدوبارة » ، إلى أن ودعت روحه الشاعرة هذه الحياة ! وهذه نادرة تعد من الشواذ ، وقل أن تحصل من رجل سواه من رجالات الدولة المصرية .

ومن الكلمات المأثورة عن شيخ شعرائنا :

« أحب الحرية فى ثلاثة : فى المرأة تحت ظل زوجها ، وفى الرجل تحت ظل شريعته ، وفى الوطن تحت ظل الله .

ومن حق شعراء العصر أن يحمدوا تلك العوامل التى أثرت فى نفس شيخهم وجعلته يعاف الاشتغال بالسياسة بطريق تتنافى مع مبدئه القومى ، فينصرف إلى أداء رسالته الأدبية البليغة الخالدة .

ولقد كان صبرى فى الشطر الأخير من حياته مهتماً بتهذيب فن الشعر ، وما يتعلق بالشعر من موسيقى ومن غناء ؛ وقد تحولت داره بعد إحالته إلى المعاش إلى شبه منتدى أدبى يؤمه كل يوم أشهر شعراء مصر المعروفين عندنا الآن ، وذلك لكى يسمعوا منه أشعاره أو يسمعوه أشعارهم ، للنقد والتنقيح قبل إذاعتها ، ومن هنا منح بحق لقب « شيخ الشعراء » .

(١) بتاؤر يعد من أعلام الشعراء فى عهد قدماء المصريين

ويقول الأستاذ «محمد صبري» : إن صبري لم يلقب بشيخ الشعراء ، إلا لأنه جمع بين مزايا ثلاث : فضل السبق في السن ، وفضل السبق في قول الشعر والتبريز فيه ، وسلامة الذوق في نقد الشعر .

ويقول الأستاذ الشاعر «مصطفى الرافعي» : لم يكن في مصر ممن يحسن ذوق البيان ، ويميز أقدار الألفاظ ، كالإمام محمد عبده ، وإبراهيم المويلحي ، والبارودي ، وإسماعيل صبري ؛ فالإمام يتذوق بالبصيرة النافذة ، والمويلحي بالظرف ، والبارودي بالسليقة ، وأما صبري ، فيتذوق برقة العاطفة ، وذلك شيء ركبه الله في طبيعة صبري ، لم يحصله بالدرس أكثر مما حصله بالحس ! !

والآن أضع بين يدي القارئ شذرات من مراثي أساطين الشعراء لصبري وأقوال مشاهير الأدباء ، التي أثبتوا فيها أن المترجم له كان أستاذهم الذي كانوا يأخذون عنه ويتعلمون عليه ويقتدون بآرائه الصائبة في نقد الشعر .

ها هو ذا «شوقي» يرثيه ويعترف بأنه كان في إبان حياته الأدبية يعدو خلفه كما يعدو المهر وراء جواد سباق لا يشق له غبار ، ليتعلم منه كيف ترام الغايات في حلبة القوافي :

قاضي القضاة جرت عليه قضية … الموت ليس لها من استئناف
ومصرف الأحكام موكول إلى … حكم المنية ما له من كاف
يا أبا الحسين » تحية لثراك من … روح وريحان وحسن نطاف
وسلام أهل وده وصحابة … حسرى على تلك الخلال هتاف
هل في يدي سوى قرائح خاطر … أزجيه بين يديك للإتحاف
هـذا هو الريحان إلا أنه … نفحات تلك الروضة المئناف
والدر إلا أن مهد يتيمه … بالأمس لجة بحرك القذاف
أيام أمرح في غبارك ناشئاً … نهج المهار على غبار خصاف (١)
«أتعلم» الغايات كيف ترام من … مضمار فضل أو مجال قواف

وها هو ذا «حافظ» يندبه ، ويقول إنه كان يعرض شعره عليه للتنقيح :

إذا قيل «صبري» ذكرت لوائد … ومرت بنفسي ذكرى عمر
يزين تواضعه نفسه … كما زان حسن الملاح الخفر
زكي المشاعر عف الهوى … شهي الأحاديث حلو السمر
لقد كنت أغشاه في داره … وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعري على مسمع … لطيف يحس نبو الوتر !

(١) خصاف مهر من الجياد السوابق أيام العرب

فيصقل لفظى لفظ الجمان ويكسوه رقة أهل الحضر
يرقرق فيه عبير الجنان فتستاف منه النهى والفكر
كذلك كان عليه السلام إماماً لكل أديب شعر !
فكنا الجداول تروى الظماء ظماء العقول وكان النهر

وها هو ذا « المطران » يبكيه ، ويقول إنه كان له ولزملائه الشعراء بمثابة الأستاذ :

اليوم نجم من نجو م الشعر أدركه الغروب
يا خطب إسماعيل صب رى ليس تبلغك الخطوب
أى صاحبى لقد قضى « أستاذنا » البر الحبيب
فعزا فلا دنيانا وكا نت زينة الدنيا شحوب

* * *

مات الذى منظومه لأولى النهى سحر خلوب
شعر على الأيام يد وبه مردد الطروب
وكأنما فى أذن قا رئه يغنى عندليب !
لله صبرى وهو لا ئمة التى اتهمت غضوب
بالرفق ينقد ما يزي ف المخطئون ولا يعيب !

* * *

فاذهب أبا الشعراء غفـ ـرك ليس ضائره الذنوب
لك فى النهى بعد النوى شذى ولكن لا يغيب !

وكتب أحد الأدباء بجريدة السياسة يوم وفاة الشاعر يقول: أعرف « صبرى » منذ ثلاثة عشر عاماً ؛ وكنت أغشى مجلسه كثيراً وأتردد عليه ؛ وكانت بيننا صلة الابن بالأب البار ، والتلميذ بأستاذه ، وكان يفيض علينا أدباً ومكارم أخلاق ؛ وكان حلو السمر عذب الحديث ؛ ولعل السر فى ذلك هو أن « صبرى » كان فى حياته ـ كما كان فى شعره ـ فناناً ؛ وكم مرة استرعى نظره فى الطريق منظر رائع من تلك المناظر الدقيقة التى لا يلتفت إليها أحد ، فوقف واستوقف يمتع منها ناظره ، حتى إن المرء ليتساءل أيهما أشعر ؟ الرجل فى حياته أم الشاعر فى شعره ؟ !

ويقول الأستاذ الرافعى : كنت أعرض عليه مرة قصيدة نظمتها فى العام الهجرى ونشرتها جريدة المؤيد سنة ١٩١٢ ، فاستحسن منها هذين البيتين :

مضى العام مذموم الفعال مشيعاً بأنة محزون ودمعة مشفق !
فلا الغرب فى ساح اليقين بمهتد ولا الشرق من الأسار بمعتق !

ثم قال لى: أولى بك أن تنظم خمسة عشر بيتاً من هذا الطراز، بدلاً من أربعين ؛ ومن ذلك يتضح حب الرجل للإتقان ، ومحض النصيحة للناشئين.

وبعث «شوقى» أيام نفيه بالأندلس «لصبرى» بهذه الأبيات التى يبدى فيها شوقه لمصر وإلى ماء نيلها العذب ، لكى يدلى فيها شيخ الشعراء برأيه ؛ والأبيات من نونية « شوقى » التى عارض بها نونية الشاعر الأندلسى أحمد بن زيدون المشهورة: ومطلعها « أضحى التنائى بديلا من تدانينا » الخ . وهاك أبيات شوقى :

ياسارى البرق يرمى عن جوانحنا	بعد الهدوء ويروى عن مآقينا
ترقرق الماء فى دمع السماء دماً	هاج الأسى فخضبنا الأرض باكينا
ياساكنى مصر إنا لانزال على	عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا !
هلا بعثتم لنا من ماء نيلكم	شيئاً نبل به أرواح صادينا ؟
كل المناهل بعد النيل آسنة	ما أبعد النيل إلا عن أمانينا !

وقد كان إعجاب شيخ الشعراء عظيما بهذه الأبيات التى أبدع شوقى فى إيداعها حرارة أشواقه لمصر وساكنيها وماء نيلها ؛ وقد أرسل صبرى إلى شوقى بالأندلس هذه الأبيات :

ياوامض البرق كم نبهت من شجن	فى أضلع ذهلت عن دائها حينا
فالماء فى مقل والنار فى مهج	قد حار بينهما أمر المحبينا !
لولا تذكر أيام لنا سلفت	ما بات يبكى دماً فى الحى باكينا !
يا « آل شوقى » عودوا لا عدمتكم	وشاهدوا ـ وبحكم ـ فعل النوى فينا!
يا نسمة ضمخت أذيالها سحراً	أزهار أندلس هبى بوادينا !

وعندما اطلع شيخ الشعراء على قصيدة شاعر القطرين فى الحرب الطرابلسية ، هلل لها طرباً ، وكان يتغنى منها كثيراً بهذا البيت :

يقول للعلم الخفاق فى يده	فيه من الأرض ما تختار ياعلم !

وقد قال للمطران : أسكرتنى، إنك قد فت الشعراء بستمائة عام!!

وسئل صبرى يوماً عن رأيه فى الشعراء الثلاثة فقال : شوقى ينظم ، وحافظ يبنى ، ومطران يبتدع . وقيل له أيضاً : أيهما أشعر : شوقى أم حافظ ؟ فأجاب : إن الفرق بينهما كالفرق بين المليم والجنيه الذهب !

والآن سلاماً أيها القارىء ، لنلتقى أعلى صفحات العدد الآتى ، فنتحدث عن بقية نوادر الرجل الأدبية وطريف أشعاره.

[أم درمان — سودان] المبارك ابراهيم